المرأة في الكتاب المقدس والتقليد الكنسي

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢١

www.coptology.org

المرأة في الكتاب المقدس والتقليد الكنسي[١]

هذا الموضوع مرتبط بعدة موضوعات في العقيدة المسيحية:

١- مرتبط بإيمان الكنيسة، بعقيدة الخلق.

٢- مرتبط بإيمان الكنيسة، بالخلاص أو الفداء.

٣- مرتبط بإيمان الكنيسة، وايماننا بطبيعة الكنيسة.

٤- مرتبط بإيمان الكنيسة، بالثالوث.

وهذا التدرج الذي اتبعته يبدأ بالإنسان ليصل إلى الثالوث، إلى الله. ويمكننا كذلك أن نبدأ بالله وننزل إلى الإنسان.

إن كل ما يُكتب في كتب اللاهوت المسيحية، عن المرأة أو الجنس أو الأسرة بشكلٍ عام، إذا لم يُعالَج ويُدرَس من خلال إيماننا بخلق الإنسان كصورة الله ومثاله، وإيماننا بالخلاص بيسوع المسيح، ثم إيماننا بالكنيسة، ثم إيماننا بالثالوث، فكل كتابة تُكتَب خارج هذا الإطار تبقى غير صحيحة، وتتضمن شططًا، وربما هرطقات، وعلينا التعرف على هذه الهرطقات لشدة تأثيرها.

---

(١) محاضرة ألقيت في الحلقة الاستشارية التي أعد لها برنامج المرأة في مجلس كنائس الشرق الأوسط في الفترة من ١ – ٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧، بيروت – لبنان. نُشِرَت في الكتاب الذي ضم المحاضرات التي أُلقيت في المؤتمر الذي دعا إليه برنامج المرأة في مجلس كنائس الشرق الأوسط بعنوان المرأة في الكنيسة والمجتمع في الشرق الأوسط، مجلس كنائس الشرق الأوسط، ص ٢٣ – ٣٢، الطبعة الأولى ١٩٧٩، بيروت، لبنان.

في اللاهوت المسيحي الأرثوذكسي هناك أربع هرطقات وُجِدَت في الكنيسة الأولى، ونحن نعتقد تاريخيًّا أن هذه الهرطقات انتهت، لأن الكنيسة حكمت عليها في المجامع، وعن طريق الآباء. وهذه الهرطقات هي:

١) المانوية. أو الثنائية بين الخير والشر وبين المادة والروح. وهي أن كلَّ إنسانٍ يفصل بين الحياة المسيحية والحياة الاجتماعية، ويعزل الاثنين، فهو مانوي. وكل إنسان مانوي يفهم قضية الجنس فهمًا خاطئًا.

المانوية ليست ثنائية بين المادة والروح فقط، لكنها تقسِّم الله نفسه، فتوجِد إلهًا للخير وإلهًا للشر. والخلاص يتضمن اكتشاف طبيعة الشر أيضًا. من الممكن أن نجد أفضل تعريف للشر في كتاب "تجسد الكلمة" لأثناسيوس. قال: "كل ما هو موجود فهو خير وأما الشر فهو عدم". إذًا لا وجود للشر خارج الحياة. وأيضًا أقول، إن الوجود هو الخير، لأن الوجود أصلًا في تعليم الكنيسة عن الخلق مرتبط بالله لأنه نابعٌ من الله مباشرةً، وذلك يتضمن حتى الوجود المادي. الشَّرُ عدم، لأن الشَّرَّ هو انفصال الإنسان عن الله. ويتحول الإنسان أو الكائن إلى وحدة متكاملة بعيدًا عن الله.

فالمانوية تقسِّم كلَّ شيء. حتى أنها حرَّمت الصِّلات الجنسية إلى حدها الأدنى، وكانت أيضًا تعتقد أن الخلاص هو عبارة عن مجيء سلسلة من الأنبياء أو مرسلين من الله. سلسلة متتابعة. إن تعبير "خاتم الأنبياء" تعبير مانوي موجود عن اخواتنا المسلمين. وأن الإنسان عن هذا الطريق يستطيع الانفصال عن الحياة المادية، ومعرفة الحياة الروحية. طبعًا لاهوتيًا أو مسيحيًا؛ الخلاص هو بالمسيح يسوع وحده. وليس هناك سلسلة من الظهورات، إنما هناك مركزٌ أو شخصٌ واحدٌ تتجه إليه

وتدور حوله كل الظهورات الإلهية، وكل التدبير الإلهي، وهذا المركز موجود في قلب التاريخ، في قلب الحياة الإنسانية، لأنه هو إلهٌ وإنسان.

٢) الغنوسية. وأهم شيء فيها هو الخلاص بالمعرفة. وليس بالإيمان وخطورة هذا الكلام، أن المعرفة عند آباء الكنيسة تنبُع من الحياة والحياة بالإيمان. إذًا، فالمعرفة هي نتيجة للإيمان. عند الغنوسية، الإنسان عن طريق تطهيرات وممارسات نسكية يفهم أسرار الله نفسها، وعندما يصل إلى فهم الأسرار الإلهية، فإنه يستخدم هذا الفهم لتحرير نفسه وإنهاء جميع مشاكله مستقلًا عن الله.

وهذا هو أساس كل اللاهوت الغربي. الإنسان يتعلم، يتثقف، يعرف، وعن طريق هذه المعرفة يصل إلى الله.

الكنيسة أخذت موقفًا حادًا جدًا من الغنوسية. ليس لأن الخلاص بالمعرفة والإيمان هي القدرة الأساسية، ولأنها اعتمدت التطهيرات بعدم أكل اللحوم، وشرب الخمر، والامتناع عن الزواج، لأنهم أيضًا رفضوا العهد القديم، وعمقوا الثنائية المانوية. والثنائية تشق الإنسان، الذي هو من جسد وروح باسم البشر. البشر الروحانيون الذين سيخلصون والبشر الماديون الذين سيهلكون .. كما يقسِّمون الكتاب المقدس إلى عهد قديم وعهد جديد. وذلك يعني أن خط التقسيم عندهم يمر بكل شيء في الحياة.

أما الهرطقة الثالثة والخطرة جدًا والتي ليس فيها ثنائية فهي:

٣) الأريوسية. أنكرت لاهوت المسيح. وقالت إن المسيح الابن ليس من ذات طبيعة الآب، يعني مساواة المسيح بالآب في الجوهر كانت مرفوضة. وأكدوا أن المسيح إنسان أخذ بعض الصفات الألوهية، ليبقى بالضرورة الخلاص عندهم، أن

الإنسان يتدرج في المعرفة ويتدرج في ممارسة الفضيلة إلى أن يصل لاكتساب صفات إلهية. فلا يبقى هناك نعمة إلهية آتية من الله، ويصبح الخلاص كله جهدًا بشريًا.

والخلاص كله في النهاية أن يصل الإنسان إلى التكامل بذاته. في شكله ويأتي خلاصه بالوصول إلى طبيعة الخطيئة. فيأخذ الإنسان ما يستطيع الحصول عليه من طبيعة الله ويحيا بشكل مستقل عن الله. بينما المسيحية تؤكد أن الخلاص هو بالاتحاد بالمسيح، وعن طريق اتحادنا بالمسيح نتحد بالآب. ويتحد الإنسان بالمسيح أولًا ثم في داخل المسيح نفسه. أي اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص المسيح فأصبحت الطبيعة الإنسانية في المسيح يسوع، وهي الطبيعة التي تمثل كل البشر، طبيعة جديدة مؤهَّلة للاتحاد بالله إلى الأبد، لكن هذا الاتحاد بالله إلى الأبد، يتم نتيجة أن العنصر المشترك بيننا وبين المسيح هو العنصر الإنساني، فلا شيء مشترك بيننا وبين الله. إنما في التجسد أصبح هناك شيءٌ مشتركٌ بيننا وبين الله، وهي الطبيعة الإنسانية التي أخذها المسيح، لذلك فالمسيح يسمى "آدم الثاني" أو آدم الجديد. فمثلما أخذت البشرية أصلها في آدم الأول، فهي تأخذ مصيرها في آدم الثاني، لكن بشكلٍ أفضل. لأن آدم الأول كما يقول بولس في كورنثوس الأولى ١٥ "الإنسان الأول من تراب الأرض، أما الإنسان الثاني فمن السماء". فإننا كما لبسنا طبيعة الترابي فإننا أيضًا سنلبس طبيعة السماوي. ومِن هنا يبين أن رفض الأريوسية للاهوت، ولطبيعة المسيح هي أولًا، انهم يحولون الخلاص إلى جهد بشري. وثانيًا، فهم يعزلون أو يفصلون الإنسان عن الله. ولا يعطى الإنسان فرصةً لحصول أية شركة بينه وبين الله، وبالتالي فإن أي شيء يأخذه الإنسان إذا لم يكن داخلًا في إطار الشركة الإلهية، فهو بالنهاية يؤدي بالإنسان إلى العدم. مثلًا، ما كان يزعج آباء

الكنيسة عن الأريوسية، هو، لو كان المسيح من طبيعة مختلفة عن طبيعة الآب، أي أنه مخلوق والآب خالق، إذًا فليس هناك معمودية. لأني عندما أُعمِّد باسم الآب الخالق والابن المخلوق، عمليًا، فأنا لا أوصِّل الإنسان الذي يعتمد إلى الآب الخالق. فنفس الابن هو محتاج إلى إنعام إلهي، يعني أن المسيح أصبح غير متميز عن الإنسان. فالأريوسية، أصلًا وطبيعيًا هي ضد وحدة الكنيسة، لأن الكنيسة لا تتحد على أساس النزوع البشري. مثلًا، البشر عندما يكونون مهددين بأي خطر، فإنهم يتحدون تلقائيًا. ونحن لا نستطيع الاتحاد على أساس الخوف من الخطر أو الخوف من الموت، أساس وحدتنا ليس الطبيعة البشرية التي نشترك فيها فقط، إنما أصلًا النعمة الإلهية التي هي في يسوع المسيح.

يتبع ذلك أن وحدة الأسرة هي وحدة الكنيسة، فإن ما يربط بين المسيحيين وبين البشر الجدد، ليس الوحدة الإنسانية فقط، بل وجود العنصر الإلهي الذي يجمع البشر ويجدد الطبيعة الإنسانية، ويرد البشر إلى وحدتهم في المسيح يسوع. يعني أننا إذا قبلنا الأريوسية في النهاية، فإننا لا نقدر أن نقول "لا ذكر ولا أنثى"، لأنه ليس شركة أو اتحاد بالله او تأليه، وليس فيها أي إسباغ، وليس فيها إعطاء الحياة الأبدية أو عدم الفساد. فالحياة الأبدية ليست صفة طبيعية في الإنسان. الإنسان في الطبيعة ليس أبديًا. الأبدية هبة أو نعمة تعطى للإنسان. الأبدية هي اتحاد المفديين أو المخلَّصين في يسوع المسيح، وهذا الاتحاد قائم على أساس إلهي، الذي يتكلم عنه بولس الرسول في أن الكنيسة هي جسد المسيح. المنهج الأريوسي أصلًا يعطي الآب كل شيء، فيبقى الآب هو الواحد وحده المطلق. وليس هناك أية علاقة بينه وبين الكائنات المخلوقة.

والمنهج "الأريوسي" مطبَّق رعائيًا في الكنيسة. أي بالسلطة التي لا حدود لها، والمستقلة التي هي سلطة الأسقف. وإذا قرأنا رسالة أغناطيوس الأنطاكي، نجد أن المنهج الأريوسي أو أي إنسان أريوسي يقول، اخضعوا للأسقف كخضوع المسيح للآب. وخضوع المسيح للآب من الممكن أن يُفهم بشكلين:

بالشكل الأريوسي، في أن المسيح مخلوق، وهو يخضع للآب كمخلوق، وأن هناك سيادةً وسلطانًا. ولكن عندما نقرأ أغناطيوس الأنطاكي أكثر، فإننا نجد أن خضوع الجماعة للأسقف وخضوع المسيح للآب، هو خضوع الإرادة الواحدة. وهذا هو الفرق الوحيد بين الأرثوذكسية والأريوسية في أن الآب والابن والروح القدس ثلاثة متمايزون، ولكن لهم إرادة واحدة. وخضوع أي واحد للثاني يتم في داخل الطبيعة الإلهية الواحدة ويتم في داخل الوحدة. هذا هو الخضوع. إنما المنهج الأريوسي فيه خضوع الرئاسة والتسلط. لذلك ففي المقالة الثالثة "لغريغوريوس النزينزي" يقول للأريوسيين، "لماذا أنتم خائفون من فكرة مساواة الابن للآب؟ .. لماذا فكرة المساواة واشتراك طبيعة الابن في الآب، تخيفكم؟ .. أنتم خائفون على ماذا؟ .. أولًا، إذا كنتم خائفين على مجد الله، على المجد الإلهي، فأنتم على خطأ، لأن الإنسان، أي إنسان مهما كانت أخطاؤه، لا يستطيع أن يَمَسَّ مجد الله. لكن أنا عارف ماذا يخيفكم. فكرة المساواة" ... وأثناسيوس، يقول شيئًا آخر عن الأريوسية، يقول، "أنا عارف لماذا أريوس لا يؤمن بأن الابن مولود من ذات جوهر الآب. لأنه هو عندما يذهب إلى بلاط الامبراطور قسطنطين، لا يعاشر إلَّا الخصيان. وهو لم يمارس الأبوة بنفسه. إذًا فليس عنده بنون ولا يستطيع فهم الأبوة والبنوة، بالشكل الروحي.

إذًا فأية هرطقة، هي عبارة عن مسلك فكري، أو نمط فكري، يبني عليها اتجاهات في الرعاية، واتجاهات في الجنس، واتجاهات في القانون الكنسي، واتجاهات في السلطة الكنسية.

أمَّا الهرطقة الرابعة فهي النسطورية، وأريد التنبيه أن كل هرطقة من هذه الهرطقات تمسُّ بشكلٍ مطلق التثليث، الإيمان بالخلق، الإيمان بالفداء، والإيمان بطبيعة الكنيسة.

٤) النسطورية. وأتناولها كما تُصوَّر في كتب اللاهوت، وهي تُصوَّر تصويرًا رديئًا. إن مشكلة "نسطور" هي عدم إمكانية الاقتناع بوجود الاتحاد بين اللاهوت والناسوت، أو أنه يرى فكرة الاتحاد كثيرة على الله، لدرجة أنه يصوِّر المسيح تمامًا مثل التصوير الأريوسي. أي أن المسيح إنسان، لكنه أخذ عطايا وهبات أكثر من الأنبياء. والنتيجة الطبيعية للنسطورية، هي، إذا لم يوجد الاتحاد بين اللاهوت والناسوت في المسيح، فلا وجود "للإفخارستيا". لأنه كما يقول القديس كيرلس الاسكندري، "إذا نحن لم نأكل جسد ابن الله المتَّحد بلاهوت ابن الله. فإننا نصبح آكلي لحوم البشر". وإذا أكلنا اللحم البشري فليس "للإفخارستيا" أية قيمة، فتنتفي بذلك الكنيسة ومسيحيتنا، وإذا لم يكن هناك إفخارستيا ولا زواج المسيح بالكنيسة، الذي ليس هو زواجًا بشريًا، إنما هو الزواج المقدس المبني على المحبة وعلى التخلي عن الذات، لتنتهي كل الهرطقات بعدم فهم الخطيئة كوحدة متكاملة بذاتها.

فخطيئة الإنسان كما يعتقد القديس "ايريناوس" أو سقوط الإنسان، كان جزءً أساسيًا في تربية الإنسان لكي يتعلم الإنسان، ما هي الأشياء الموجودة خارج الشركة مع الله، فيختار الشركة مع الله، فيتخلى بالتالي عن الخطيئة.

"فالنسطورية" عندما تنكر اتحاد اللاهوت بالناسوت، أصلًا تحارب مركز العذراء، والكلام الذي يُقال عنها، ورفض نسطور لكلمة "ثيئوطوكوس" أو والدة الإله هو أيضًا رفض ينطوي على تحقير مكانة المرأة في الكنيسة. وحول العذراء مريم هناك خطأ لاهوتي واحد واضح عند آباء الكنيسة.

فالعذراء مريم هي حواء الثانية. كما هناك آدم الثاني، فالعذراء مريم هي حواء الثانية. العذراء مريم هي أيضًا رمز الكنيسة عند "امبروسيوس"، وعند "كبريانوس" وعند "أفرام السرياني" وعند "ترتليان" وعند كثيرين من الآباء. لأنه هنا توجد فكرة في غاية الأهمية، وهي أنه بتجسد المسيح من العذراء أُعيدت المرأة إلى الكرامة القديمة التي فقدتها، ولم تعد فقط المرأة إلى الكرامة القديمة، وهناك نص جميل "لكيرلس" الاسكندري في تفسير إنجيل لوقا حيث يقول، قبل مريم كانت المرأة بابًا يؤدي إلى الموت، أمَّا بميلاد عمانوئيل الذي يعني المسيح، فأصبحت المرأة بابًا يؤدي إلى الحياة. وكل الآباء الذين فسَّروا ظهور المسيح للمريمات في الأول في القيامة، ربطوا ما بين القيامة، قيامة المسيح وعودة الجنس البشري إلى الكرامة المفقودة بسبب السقوط. ونجد كذلك أن كل الآباء، بدون أي استثناء قالوا إن المريمات أُرسلن ليبشرن الرسل بالقيامة، لأنهم يربطون بين هذا وبين السقوط في العهد القديم، من أن المرأة كانت مبشِّرة للجنس البشري بالسقوط وبالفشل، لكنها بقيامة المسيح صارت المرأة تبشر الجنس البشري بالخلاص، وبالحياة الأبدية. لأن المخلص أصلًا مولودٌ من امرأة.

إذًا الفهم المسيحي للمرأة أو لوضع المرأة في الكنيسة، أصلًا يخلو من الحساسيات التي أثيرت خلال الجدل اللاهوتي والسياسي. يخلو من الحساسيات إذا

درسنا وضع الفرد في الكنيسة، فإننا لا ندرسه من خلال أي فكر سياسي، إنما من خلال فهمنا للكنيسة، كجسد المسيح الواحد.

يعني السؤال لماذا لا "تُشرطَن" أو "تُرسَم" المرأة في الكنيسة لدرجات الكهنوت هو أصلًا سؤالٌ ينسى أن ليس كلَّ رجلٍ "يُشرطَن" في الكنيسة. فطرح السؤال أو طريقة طرحه كنمط فكري، هو من إيحاء الهرطقات القديمة أو نتيجة تأثير الفكر الاجتماعي والسياسي المعاصر الغربي المتأثر بتلك الهرطقات الأربع التي تحدثنا عنها وكل النظريات الاجتماعية والسياسية أخذت من هذه الهرطقات وتكمل وتكتمل بعضها من هذه الهرطقات، وهي تلفق بين الصور أو الأنماط الفكرية.

إنما في الكنيسة وبشكل أساسي، المرأة والرجل –وهذا التفسير في منتهى الأهمية، وهو موجود من حوالي سنة ١٩٠– "إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، فهناك أكون في وسطهم". هو أصلًا عن المرأة والرجل. عند "بنتينوس" وعند "كليمنضس الاسكندري". المرأة والرجل والثالث هو الطفل الذي يُولَد. فليس هناك الحساسية الموجودة لقضية الجنس، ولقضية التطهيرات الجسدية (في العادة الشهرية والحبل والولادة الخ ...) هذه الأمور كانت موجودة في الديانة اليهودية، في العهد القديم لأن الموت هو لعنة، والموت هو انفصال النفس عن الجسد أولًا، وانفصال الإنسان عن الله، الذي يؤدِّي إلى انفصال النفس عن الجسد، لذلك كل مَن يلمس ميتًا فهو نجس، ويجب أن يتطهر، وكل هذه الأمور مرتبطة بالولادة وبالعلاقات الجنسية، بين الرجل والمرأة وهي أمور نجسة. ليس أنها نجسة في ذاتها، إنما تنجَّست في الموت. هذه حقيقة أساسية موجودة في العهد القديم، ولما يتكلم الآباء عنها في أن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست علاقة خارج الموت، إنما هي علاقة قائمة على

الموت. هكذا يفسر آباء الكنيسة أمر الله لموسى بأن الإنسان أو بأن بني إسرائيل يجب أن يتطهروا ويمتنعوا عن النساء قبل ظهور الله على جبل "حوريب"، على أساس أن الحياة لا تستمر بالعلاقات الجنسية، بل بنتيجة ظهور الله وشهادته لله، وهذه موجودة عند "الذهبي الفم". وهذه تتضمن رغبة الإنسان في الاستمرار في الوجود، أو تخليد الإنسان لذاته، لذلك أقوى شيء في حياة الإنسان هي العواطف، والصور والخيالات المرتبطة بالجنس.

في العهد القديم، في سفر التكوين صورة العلاقة بين الرجل والمرأة، صورة فيها التنافر بين الرجل والمرأة في فكرة السيادة: "لرجلك تشتاقين وهو يسود عليكِ". في العهد الجديد بالتجسُّد، وهنا يتبين تفسير الهرطقات للتجسُّد أنه تفسير له نتيجة اجتماعية وسياسية أيضًا، بالتجسُّد تصبح السلطة والقدرة الإلهية هي في خدمة الإنسان. لتصبح السيادة ليست سيادة للتسلط إنما سيادة للعطاء وللبذل وللخدمة. والمسيح لما ربط خصره وغسل أرجل التلاميذ قَبل الآلام، طبعًا كل ذلك إشارة إلى طبيعة الخدمة، إلى طبيعة الخلاص في الخدمة. الأسقف يلبس "البطرشيل"، وهو ما كان يلبسه العبد في فلسطين وفي العصر الروماني، ليقول للناس أنا عبدٌ عندكم ولكم. أمَّا الآن فقد صار يُطرَّز بالذهب كعلامة العظمة. والأسقف يجمع في الملابس الليتورجيا بين فكرة العبد وفكرة السيد. وإن كانت فكرة السيد هي فكرة مستحدثة ويقولون مثلًا إن الأسقف لم يلبس التاج في الكنيسة البيزنطية إلَّا بعد سقوط القسطنطينية. أي في القرن السادس، لكنها فكرة غير متفق عليها .. لكن من المؤسف أن الأسقف كان يلبس البطرشيل ويشد وسطه بزنار علامة الخدمة. والأكمام التي تُلبَس في القداس هي ما كان يلبسه العبد قبل بدئه في خدمة أسياده.

حتى فكرة البخور. ووضع الأيقونات على "الأيقونوستاز" أو حامل الأيقونات. فلو أخذنا وضع الأيقونات وطريقة التبخير في الكنيسة، بالأصل هي فكرة الوليمة. وبالكنيسة نحن مجتمعون في وليمة المسيح. وترتيب المائدة في العصر اليهودي الروماني، كان أن صاحب الوليمة يجلس في صدر الوليمة، وعلى يمينه تكون الملكة، وعلى يساره يكون أهم أو أعظم ضيف عنده. لذلك فالعذراء هي دائمًا على يمين المسيح في الأيقونات، ثم قديس الكنيسة وبعدها الشعب. هي فكرة الوليمة. فالعطر كان يعطى داخل الوليمة إذ كانوا يغتسلون ويتعطرون داخل الوليمة ويرشُّون الملابس بالبخور، وهو العطر الذي كان يعطى في الوليمة، كنوع من التكريم، ونحن في وليمة المسيح نتعطر بالبخور. يعني البخور للجانب الرمزي يعطى للرجل والمرأة. بعد ذلك تبخر الأيقونات والشعب. يعني القديسين، وهم على نوعين؛ القديسين المنتصرين على الموت. كالشهداء والمعترفين ومعلمي الإيمان، والقديسين الحاضرين في الكنيسة من الشعب. ونحن في الكنيسة كلنا جماعة القديسين.

لكن من الضروري أن نعود لفكرة سيادة الرجل على المرأة، هي فكرة غريبة عن المسيحية، لأنه بالخلاص وكل ما يقال عن الخلاص يجب أن يُوضَع الموضوع في إطار التجسُّد، والصَّلب، والقيامة. أي هو البذل والعطاء. وإلا ما معنى ما قاله السيد المسيح في "أيها الرجال أحبوا نساءكم كما أحب المسيح الكنيسة فبذل نفسه لأجلها". أين تأتي فكرة المحبة والطاعة هنا هي طاعة المحبة. وطاعة الكنيسة للمسيح ليست طاعة مبنية أو مبيتة على القهر، إنما هي طاعة الواحد أو الوحدة. لذلك فكل فهم للزواج المسيحي يجب أن يُبنى على فهم الكنيسة. كل فهم لدور المرأة في الكنيسة يجب أن يرتبط بكرامة العذراء مريم، ووضع المرأة في الكنيسة هو نتيجة

وجود حواء الثانية.

كل صور وأنماط التفكير اللاهوتي، يجب أن تبنى على هذا النمط، وليس على أنماط أخرى خارجة عن هذا النمط، وإلا تحولت إلى هرطقات أو إلى فكر غريب. لذلك، فالكنيسة في القرن الخامس والسادس، دخلتها التشريعات القانونية من العهد القديم. ولذلك لما خفَّت، ضَعُفَت فكرة الوحدة بين الرجل والمرأة كوحدة المسيح بالكنيسة، وذلك نتيجة الحياة النسكية والعوامل الاجتماعية. ولكن الشيء المؤكد تاريخيًا أنه بالوقت الذي دخل فيه هذا القانون الخاص بتطهيرات المرأة والأشياء الأخرى، في هذا الوقت بالذات كتب الآباء عن ذلك كتابات جيدة جدًا. عن الطبيعة السرية للزواج. ويكاد يكون أفضل النصوص عن الزواج، لا يأتينا إلا من القرن الخامس. وذلك محيِّر ومتناقض تمامًا. لكن طبيعة التقليد الكنسي إنه لما يحصل أي ضعف، بنظرة عقائدية أو ليتورجية، يأتي التقليد فيعوضها ويكمِّلها بالتجديد في أو على تيار ثاني. هذا معروف في تاريخ الكنيسة، وأنه في القرن الخامس والسادس والسابع تبين لنا أن الزواج كان يمارَس كَسر كنسي، ولكن بسبب اهتمام الكنيسة بالحياة النسكية وانتشار الرهبنة واعتبار أن الراهب هو المسيح الكامل، لم يكتب الآباء بشكل عميق عن الزواج، ولم يكتب الآباء شيئًا عن المرأة، سوى بعض النصوص المتفرقة عند "الذهبي الفم"، "ومكسيموس المعترف"، "وكيرلس الاسكندري". وهذه النصوص المتفرقة أتت في الأحاديث عن القيامة ودور المريمات في التبشير بقيامة المسيح. هناك نص في المقال الرابع في "غريغوريوس النزينزي" يقول: "كل مَن لا يحب النساء يكره الكنيسة، ومَن يحتقر المرأة يحتقر الكنيسة" ففي بذرة الأصل، مكانة المرأة بالكنيسة في كتابات الآباء مرتبطة بعلاقة المسيح

بالكنيسة. طبعًا هناك ملاحظة هامة، هناك القوانين الكنسية التي تمنع المرأة من بعض الممارسات الكنسية. هذه القوانين للعلماني، وليس للمرأة بالتخصيص، ومع هذا، فهناك شواهد قانونية على أن المرأة كانت تمارِس في الطقس السرياني في "الدسقولية السريانية"، دَهن المرأة البالغة بزيت الميرون بعد المعمودية، وهو الحق المعطى للأسقف فقط. وهناك نصوص عن تكريس المرأة لدرجة الشماسية، ووضع اليد عليها واستدعاء الروح القدس، وسُمِحَ للمرأة في الطقس البيزنطي أن تدخل الهيكل وأن تناول من الكأس. وهذه مطروحة في نصوص من القرن الثامن والتاسع. وفي الواقع إن طبيعة اللاهوت الأرثوذكسي في طبيعة الحياة الليتورجية الأرثوذكسية لم تطرح على الكنيسة موضوعًا خاصًا بالمرأة، لأن الأرثوذكسية تعتمد أصلًا على نفي الأخطاء. هي تنفي الخطأ، وبما يسمى "بالابوفيتيا" تنفي الخطأ وتترك الحق أو الصواب. هي رؤية مفتوحة وغير محددة.

ولقد توقَّفت الممارسات الطقسية الخاصة بالنساء نسبةً للظروف الاجتماعية التي سادت الشرق، فتغيرت. وبالنهاية، التطور في الحياة الكنسية كاد أن يخفي دور ومكانة العلمانيين بشكلٍ عام، وليس دور المرأة فقط. وفي تلك الفترات المرتبطة بالمعاناة والضيق، سيطرت الرهبانية على كل الحياة الفكرية والروحية بالكنائس الارثوذكسية في كل مكان، فأصبح الراهب هو الأسقف وهو الكاهن، وفي أيام الاضطهاد، ولا سيما في مصر، كاد أن يختفي الكاهن المتزوج من الكنيسة. لكن من الضروري أن نقوم بتغيير في وضعنا المعاصر على أساس الرجوع إلى الرؤية الأرثوذكسية الأولى، رؤية القرون الأربعة الأولى وإعادة اكتشاف التراث الذي أهملناه وعلينا أن نسقي هذه البذور الأرثوذكسية بتجربتنا المعاصرة لكي تنمو، وتعطينا رؤية

أرثوذكسية سليمة، عن القضايا التي تُطرح اليوم حول موضوع المرأة.

إنه من الضروري لنا أن نعيد تجديد رؤيتنا عن المرأة من خلال الفهم السليم لأبعاد الهرطقات الأربع التي ذكرناها، ومن خلال فهمنا لطبيعة الحياة الكنسية. فالكنيسة الأرثوذكسية يجب أن لا تتشبَّه أو تتبنى الإدارة الكنسية الغربية. بمعنى أننا اليوم، ونحن في سبيل بناء معاهد اللاهوت المختلفة، يُسام لدرجة القسيسية كل الذين يحصلون على درجات علمية في اللاهوت. وننسى أن الخط الفاصل بين الكاهن المدعو من الله، والذي هو بحسب إرادة الله ليس هو كل مَن يحمل درجة علمية، وإنما هو مَن يدعوه الله ويختاره الشعب. وقد أهملنا في الكنيسة الأرثوذكسية، إلى حدٍّ بعيد، ما تصرِّح به القوانين الكنسية، مثل قوانين الرسل وقوانين هيبوليتوس وكتابات الآباء عن اللاهوت. ولهذا علاقة أساسية بوضع خدمة المرأة، ونحن لا يجب أن نعطي خدمة للمرأة على أنها امرأة فقط، للتشبُّه بالاتجاهات الغربية. وإنما علينا أن نفهم في الكنيسة اليوم وبشكل أساسي، أننا نعطي الخدمة لمن يملك موهبة أو مواهب الخدمة. وأعتقد أن هذه نقطة أساسية، أن لا تصبح خدمة المسيح خاضعة لنظام بيروقراطي وتُدار بشكل إداري بعيد كل البعد عن النظرة "الكاريزماتيك" أو النظرة إلى المواهب. فإذا استطاعت الكنيسة أن تضع بروح التمييز والإفراز، وهي عطية الروح القدس للجماعة، أن ترى هذه المرأة أو هذا الرجل مدعو إلى الخدمة، إذ ذاك تستطيع الكنيسة أن تعطي خدمة لهذا الإنسان سواء رجلًا كان أو امرأة دون ان تسأل عن قضايا الجنس وما إليه.

ومن جانب آخر، إننا في الكنيسة الأرثوذكسية اليوم قد نسينا إلى حد كبير تجربة القرون الثلاثة الأولى، أي ما قبل "نيقية"، وهي أن جماعة الرب في الكنيسة هم

صورة أرضية عن الثالوث. فالثالوث حقيقة تُختَبَر وتعاش، وليست موضوعًا تُكتَب عنه الكُتب والمقالات الدفاعية. بعد "نيقية"، وبكل أسف، وبسبب ظهور الأريوسية، تحول الكلام عن الثالوث، إلى ما يسمى باللاهوت الدفاعي وأصبح موضوع الثالوث موضوعًا يُناقش بشكل عقلي. لكن كما نعرف أن الرب يسوع في إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٧، قد دعا الكنيسة إلى أن يكون الجميع واحدًا. أن نصبح على مثال وحدة الآب والابن والروح القدس. وطبعًا هذه الوحدة قائمة على التمايز بين كل أقنوم، وشخص بالثالوث وتمايز مع وحدة الجوهر، وتمايز أيضًا في العمل، ومع ذلك يظل الثالوث واحدًا.

ومِن هنا، فإننا يجب أن نفكر في موضوع المرأة، وفي وضع المرأة في الكنيسة في إطار اختبارنا لحقيقة الثالوث. بمعنى أن لا توجد عوائق جنسية: ليس رجل أو امرأة، عبد أو حر كما يقول الرسول، وإنما هناك تمايز في الوظائف. هذا التمايز في الوظائف يعطي للكنيسة حرية اختيار القيادات وحرية الحركة، ولكن كما نعرف أن التمايز بين أقانيم الثالوث هو في الواقع يخدم الجوهر الواحد.

إذًا في سعينا لوحدة الكنيسة، علينا أن نختار الوحدة كهدف أساسي تسعى إليه الكنيسة، وفي نفس الوقت كي تؤكِّد على التمايز وعلى تنوع الاتجاهات. وفي تأكيدنا على الثالوث كرمز ومثال لوحدة وحياة الكنيسة علينا أيضًا أن نعيد تكوين صور المحبة. لأنها في المجتمع البشري ليست مستوحاة من الإنجيل، ولا تعبِّر عن تطلعات المحبة الإنجيلية. فعلاقة الرجل والمرأة في الكنيسة تتخذ من علاقة المسيح بالكنيسة رمزًا ومثالًا، ولذلك يُصبح كل ما يُقال عن علاقة المحبة أو علاقة الزواج في الكنيسة المسيحية، محتاجًا إلى تطهير وإلى إعادة صياغة، إعادة صياغة مستوحاة من

علاقة المسيح بالكنيسة. لأننا في الحقيقة نعجز تمامًا عن تكوين صورة للمحبة الإنجيلية من خلال الأدب والشعر والقصة، وما تجود به الحركات الفكرية القديمة والحديثة. وحتى في حياة الكنيسة، إذا كان الرسول بولس قد طلب من الرجال أن يحبوا نساءهم كما أحب المسيح الكنيسة، وطلب من المرأة أن تخضع لرجلها، فإنها يجب أن تعرف أنه منذ التجسد، وبالصليب وبالقيامة أصبحت السلطة أو القوة سلطة خادمة أو قوة خادمة، وهي ليست في الحقيقة سلطة أو قوة مجردة، إنما هي سلطة وقوة المحبة والاتضاع الإلهي العجيب الذي جعل ابن الله ينزل إلى أعماق دناءة الإنسان وفقره. ولذلك، فحركة النزول الإلهي التي أعقبها حركة صعود إلى فوق إلى يمين الآب، كما يقول الذهبي الفم، هذه الحركة هي الطريق الحقيقي للمحبة المسيحية في النزول ثم الصعود.

لذلك، فبخضوع المرأة للرجل كخضوع الكنيسة للمسيح، ليس خضوع العبودية. وهنا تبرز الأريوسية أو المنهج الأريوسي، أو الصورة الأريوسية للمحبة. أمَّا الأرثوذكسية، فخضوع الكنيسة للمسيح هو خضوع المحبة، التي تأخذ وتعطي وتشترك، في كل شيء حتى في الحياة الإلهية نفسها. فإذا كانت المحبة شركة، فالشركة وحدة، والوحدة خضوع، والوحدة ليست انقسامًا أو انفرادًا في السلطة. ولذلك فعقيدتها في تأليه الإنسان، هي أيضًا سد منيع، يمنع كل ما يقال عن حقوق تميِّز شخصًا عن آخر أو جنسًا عن جنس.

في القرون الأربعة الأولى عندما أصرَّت الكنيسة على عدم إعطاء الكهنوت للمرأة، لم يكن ذلك تحقيرًا للمرأة، إنما كان إيمانًا بأن الجانب الجنسي أو العضلي عند الرجل، هو بمثابة دعوة ليكون صورة الله الآب على الأرض، وأن يمارس الكاهن

عمله، كأب لكي نستطيع أن ندرك من خلال هذه العطية معنى أبوة الله.

بوجهٍ عام، الأرثوذكسية هي بذرة تحتاج إلى أن تروى بخبرتنا المعاصرة، ونحتاج لأن نعيد من خلال فهمنا، وعلى هدى العقيدة، تكوين صورة حقيقية عن الأسرة وعن علاقة الرجل بالمرأة، في جسد المسيح.

+ + +